دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

العنوان:	الجامع الاموي : الق الحضارة وشواهد الابداع
المصدر:	مجلة التراث الشعبي
الناشر:	وزارة الثقافة والاعلام - دائرة الشؤون الثقافية والنشر
المؤلف الرئيسي:	السامرائي، محمد رجب
المجلد/العدد:	مج 13, ع 3
محكمة:	نعم
التاريخ الميلادي:	1982
الشهر:	اذار
الصفحات:	12 - 20
رقم MD:	320202
نوع المحتوى:	بحوث ومقالات
قواعد المعلومات:	HumanIndex
مواضيع:	العصر الاموي، التراث الشعبي، الجامع الاموي، سوريا، المعالم التاريخية، الفن المعماري، النقوش المعمارية، الزخرفة الإسلامية
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/320202

© 2021 دار المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو دار المنظومة.

الجامع الأموي

الـــق الحضـــارة وشواهد الابـــداع

محمد رجب السامرائي

الجامع الاموي قلب دمشق ، واستمرار الاصالة والبقعة الخالدة التي كانت تفرع اليها الروح ابدا حين تقيدها الارضيات . ومنذ آلاف السنين تفاعلت فيه تطلعات الانسان هناك ـ الروحية عبر العصـــور ، وتزاوجت ثقافاته وأفكاره وفنه بثقافات وفنون الآخرين .

لقد صارع هذا الجامع الشاخص النار والدمار وثبت وتكسرت على جدرانه موجات القرون ، وفي أجوائه ، وعلى عتبات معابده ومحاربـه تتداخل طقوس الآراميين ودعواتهم ورائحة أضاحيهم بسحر المصـريين وادب وترانيم جنائزهم بصلوات اليونان ودخان بخورهم .

فالجامع الاموى هذا مع كل الشواهد الآثارية والنقوش والجوامع والمعالم التاريخية التي تنتصب اليوم فوق أرضنا المعطاء متحدية ريـح الزمن وتتطاول اليوم في الفضاء بكل شموخ وكبرياء لتبقى دليلا على الاصالة والابداع العربي على مـر السنون .

في كل مدينة عربية تنتشر المساجد والجوامع القديمة والحديثة ، منائرها البديعة الطراز منادية المسلمين للصلاة .. ولتكون رمزاً للديـن الحنيف وللناس كافة .. واليوم عندما تسير في شوارع دمشق عاصمـة سورية تطالعك منارة تعلو وتشمخ وعندما تسأل تعرف بأنك وصلت الى مكان الجامع الاموى بكل سني الحكايات والروايات عنه ، فلنستمع سوية الى قصة هذا الجامع بشي من الاقتضاب .

قصـــة البدايـــة :

المرجح في اقامة هذا الجامع هو في مكان المعبد الوثني القديم الذى لم يبق من آثاره سوى حجر منحوت يرجع الى القرن التاسع عشر ق . م ، منقوش على أحد وجهيه صورة ابي الهول !

نصل معا مع تاريخ دمشق عندما فتحت ابوابها مشرعة بوجه الفتح العربي الاسلامي لها . فعندما دخلها القائد العربي أبو عبيدة عامر بن الجراح ، نجده قد وضع تخطيطا للمسجد على أغرار المساجد الاولى . صحن في الوسط تحف به من جهات ثلاث اروقة تحملها أعمدة ، أمام الحرم في الجهة الجنوبية . وهذا الجامع ـ الاموي ـ أول مكان للعبادة في هذه الديـــار ؟

الوليـد وعمارة الجامـع

يمر الزمن وتتوالى الايام على هذا الجامع فينال العناية من الامراء والولاة به .. لنجد الخليفة الاموى (الوليد بن عبدالملك) بعد أن تسلم مقاليد الحكم ، وكان الوليد مغرما بالعمارة والهندسة ، فوجد ان مساحة الجامع أصبحت لا تكفي المصلين بعد أن دخل الناس في دين الله .. ونظرا لوجود كنيسة جوار الجامع ، قرر الخليفة الوليد بن عبدالملك من مفاتحة اهلها وعرض عليهم بيعها ، على أن يعوضهم عنها ، ويسمح لهم ببنـاء كنيسة بدلا عنها ، ولما قبلوا ذلك شرع الخليفة بالبناء ، في السنة الاولى من حكمه (٧٠٥ م) ، فأرتفع الصرح شامخا بين البنيان وجند لذلك الوليد المهندسين والصناع والمرممين .

لكننا نجد سليمان بن عبدالملك شقيق الوليد هو المستحدث على عمارة الجامع ، ويقال بأن الوليد بعث الى ملك الروم يطلب صناعا في الرخـام والاحجار وغيره ذلكليعمّروا هذا المسجد الجامع ، وارسل الخليفة يتوعده ان يفعل ليغزون بلاده بالجيوش ... ، فبعث ملكالروم صناعا كثيرين جـدا !

جـامع المحاسـن :

ان مخطط الجامع مزيداً في هندسته . اذ لم يبن مثله في العهود السابقة اي بناء آخر ، حتى ظل المعماريون يستمدون من مبادىء هندسته الاسلامية اسلوب بناء الجوامع التي شيدت في العالمين العربي والاسلامي لعدة قرون .

ويذكر أن الخليفة الوليد بن عبدالملك قد انفق على بنائه خراج دولته لعدة سنين ، واصبح درة العمارة وعرف (بجامع المحاسن كامل الغرائب) . واطنب المؤرخون في وصفه ، من ذلك قولهم :

« لم تترك بلد الا ورسم بهذا المسجد من مناظره واشجاره وقنواته » . ووصفه احد المؤرخين الغربيين قائلا :

« لم يكن بناء الجامع الاموى مفخرة للحضارة العربية ، فحسب بل كان أعظم ابتكار في فن البناء العالمي في كل العصور ، وفي كل البلاد لسعة أجزائه وعظمة تنظيماته وروعة زخارفه وغنى موارده » .

ما دمنا تحدثنا عن بداية النشأة فلنتحدث عن شكله ومحتوياته . حسن ، الجامع مستطيل الشكل فطوله (١٧٥) م ، وعرضه (١٠٠) م ، ويشغل ايوان القبلة والقسم الاعظم من الجهة الجنوبية ، وطوله (١٣٦) م وعرضه (٣٧) . وقد اتخذت الناحيتان الغربية والشرقية للوضوء والصلاة المنفردة ، وهنالك الصحن الرحب الذي تحف به الاروقة من الشرق والشمال والغرب .

أبواب أربعة له :

زائر هذا الجامع سيجد له أربعة أبواب . الاول (باب البريد) ويقع في الجهة الغربية وهو مصفح بالنحاس المنقوش حين جدد في العهد المملوكي أيام السلطان المؤيد شيخ عام ١٤١٩ م . والباب الثاني (باب الكلاسة) ، فيقع في الحائط الشمالي وتعلوه كتابة كوفية مزهرة تعود الى أيام السلاجقة .

وهناك الباب الثالث (باب الفراديس) ويعرف أيضا (بباب العمارة) وصنع من النحاس الذى جدد في عهد المماليك ، ويتألف (الباب الشرقي) وهو الباب الرابع المعروف (بباب جبرون) ، من ثلاثة مداخل مكسوة بالرخام والفسيفساء الزجاجية التي اشتهرت بها عمارة المسجد الاموى بدمشق ، وقد استبدلت قطع الفسيفساء اثر حريق المسجد أيام المماليك بصفائح من القاشاني !

قبة الخزنة المثمنة ؟

نصل سوية أيها الكرام مع تاريخ هذا الجامع لتذكر بأن في صحنه ثلاثة من القباب ، أهمها ما تعرف (بقبة الخزنة) ذات الشكل المثمن ، والتي ترتفع على أعمدة ثمانية لها تيجان كورنيشية ، وصنعت رقبة هذه القبة من الآجر والاحجار على التوالي ، كما زينوها وزخرفوها بالفسيفساء العربية . وما زالت ماثلة للعيان لتروي للزائرين من كل حدب وصوب عظمة العرب وفنهم الاسلامي ، ومهارة وأبداع الانامل التي عملت بها .

منارة العروس واربعون مؤذنا !

من قباب الجامع نقتفي الاثر متوجهين ورافعي رؤوسنا صوب المآذن المتطاولة في كبد السماء ، فنعرف بأن أهم المآذن في الجامع « منارة العروس » التي بناها الخليفة الاموي الوليد بن عبدالملك . تقع

هذه المنارة في منتصف الحائط الشمالي وتجاور (باب العمارة) الرئيسي، وقد أعيد بناء الجزء الاعلى منها أيام القائد صلاح الدين الايوبي عام ٥٧٠ هـ ، لكن الجزء الاسفل الذي شيد أيام الوليد بن عبدالملك لا زال باقيا ، وجعل لها عدة من المصابيح توقد عليها في كل ليلة ، ورتب لها ثلاثة نوب كل نوبة اربعون مؤذنا !

أما المنارتان الشرقية والغربية فقد شيدتا على أساس الصومعتين القديمتين وجزؤهما الاسفل مربع التخطيط ، والاعلى مثمن ذو شرفتين الواحدة تلو الاخرى وقمتها على شكل مخروط رفيع لانها جددت على الاسلوب العثماني في بناء المآذن .

والمنارة الغربية تهدمت ، وأعيد بناؤها في عهد الاشرف قايتباي، شكلها مثمن ولها شرفة مسقفة ، وتعلوها شرفتان الواحدة فوق الاخرى تنتهي بشكل كروي !

زخارف وفسيفساء سحر للأبصار !؟

للجوامع والمساجد مزايا عديدة منها الآيات القرآنية الكريمة والاحاديث الشريفة المدونة في جدرانها وحول أسيجتها وحيطانها ، كذلك الزخارف البديعة .. والداخل للجامع الاموي سيشاهد جدران الحرم المزينة الداخلية ، وأورقة صحنه من الداخل والخارج مطعما بالفسيفساء، في حين نجد الدعامات التي تطل على الصحن من الداخل والخارج والاعمدة جميعا مكسوة بالرخام النادر ، كما وطعمت من قطع الزجاج المكعب التي كان قطر كل منها حوالي سنتمرين . وتجدها مزيدة في صنعها والوانها ، وكانت تصور مناظر العاصمة دمشق ، وما فيها من حدائق غناء واشجار كثيفة ومياه متدفقة ، ومشاهد من الدولة الاسلامية .

كما حرص الخليفة الوليد بن عبدالملك على عمارة الجامع وانفاق الاموال نجده قد حرص بصورة تليق بمكانته السامية في نفوس المسلمين ، وليكون شاهدا على عظمة الفن الاسلامي الذي استطاع أن يبرز الدقة والاتقان والذوق فيلا جمع الزجاج المذهب ووضعه في تناسق تام ، صورة زخرفية رائعة واتقان منقطع النظير نال اعجاب مؤرخي الفن والسائحين وأهل الفن والعمارة على حد سواء .

ثم نجد النحات قد أبدع وتفنن في زخرفة نوافذ المسجد ، ففرغ الحشوة الرخامية على شكل مسدس ، في كل زاوية منه دائرة تتصل وتتعانق مع ما يجاورها لتكون منظراً هندسيا يسحر الابصار ، وينتزع الاعجاب ، وهذه النوافذ الرخامية المفرغة في الجامع الاموي بدمشق تعتبر أقدم وأروع مجموعة في الفن الاسلامي !

شـــهادة ابن جبير :

لنعرج من فنون الجامع الى شواهد دونها لنـــا الرحالة ولنقف في البدء عند الرحالة العربي ابن جبير الذي زار دمشق في أواخر القرن الثاني عشر الميلادي ليتحدث لنـــا عن الجامع الاموي في رحلته المعروفة، وليصف لنـــا تعلق أهل الشام بالجامع هذا اذ يقول :

« ومنظر هذا الصحن من أجل المناظر وأحسنها ، وفيه مجتمع أهل البلد ، وهو متفرجهم ومتنزههم كل عشية ، تراهم فيـــه ذاهبين وراجعين من شرق الى غرب من باب جيرون الى باب البريد فمنهم من يتحدث مع صاحبه ومنهم من يقرأ ، لا يزالون على هذه الحال من ذهاب ورجوع الى انقضاء وصلاة العشاء الآخرة ، ثم ينصرفون ولبعضهـــم بالغداة مثل ذلك ، واكثر الاحتفال انما هـــو بالعشي ، فيخيل لمبصـــر ذلك انها ليلة سبع وعشرين من شهر رمضان المعظم كما يرى من احتفال الناس واجتماعهم ، لا يزالون على ذلك كل يوم ، وأهـــل البطالة مـــن الناس يسمونهم (الحراثين) ... »

ونستمر مع ابن جبير في وصفه الجميل للجامع ومعالمه ، اذ يقول :

« وعن يمين الخارج من باب جيرون من جدار البلاط الذي أمامه غرفة ولها هيئة طاق كبير مستدير فيه طيقان صفر قد فتحت أبوابـــاً صغاراً على عدد ساعات النهار ، ودبرت تدبيراً هندسياً . فعند انقضاء ساعة من النهار تسقط صنجتان من صفر من فمي بازيين مصورين من صفر قائمين على طاستين من صفر تحت كل واحد منهما : أحدهما تحت أول باب من تلك الابواب ، والثاني تحت آخرها . والطاستان مثقوبتان فعند وقوع البندقتين فيهما تعودان داخل الجدار الى الغرفة وتبصر البازيين يمدان أعناقهما بالبندقتين الى الطاستين ويقذفانهما بسرعـــة بتدبير عجيب تتخيله الاوهام سحراً ، وعند وقوع البندقتين في الطاستين يسمع لهما دوي وينغلق الباب ، الذي هو لتلك الساعة ، للحين للحين يلوح من الصفر ، لا يزال كذلك عند كل انقضاء ساعة من النهار ، حتى تغلق الابواب كلها وتنقضي الساعات ، ثم تعود الى حالها الاول .. »

ويستمر ابن جبير يحدثنا ونحن لا نمل حديثه عن الجامع الاموي وانطباعاته ومشاهداته الحية لـــه ويردف مكملا حديثه لنـــا :

« ولها بالليل تدبير آخر ، وذلك أن في القوس المنعطف على الطيقان المذكورة ، اثنتي عشرة دائرة من النحاس ، مخرمة وتعترض في كـــل

دائرة زجاجة من داخل الجدار في الغرفة ، مدبر ذلك كله منها خلف الطيقان المذكورة ، وخلف الزجاجة مصباح يدور به الماء على ترتيب مقدار الساعة فاذا انقضت عمّ الزجاجة ضوء المصباح وفاض على الدائرة أمامها شعاعها فلاحت للابصار دائرة محمرة ثم انتقل ذلك الى الاخرى حتى تنقضي ساعات الليل وتحمر الدوائر كلها . وقد وكل بها في الغرفة متفقد لحالها درب بشأنها وانتقالها ، يعيد فتح الابواب وصرف الصنج الى وضعها وهي التي يسميها الناس المنجانة » .

زيارة لقبر النبي يحي « ع » :

والذي يزور الجامع لابد وأن يشاهد داخل الحرم قبر النبي يحي ابن زكريا (ع) المكون من بناء حديث تحيط به أعمدة من الرخام ذات تيجان كورنيشية الطراز . ويروي لنا الرحالة ابن جبير : « ان العرب حين كانوا يبنون المسجد ايام الوليد بن عبدالملك عثروا على سارية يختلف لونها عن أعمدة الجامع وانه شاهدها بنفسه ، وكان بها رمز يشير الى ضريح النبي يحيى (ع) » !

أما على جانب الجامع فنشاهد مرقد البطل الكبير قاهر الصليبيين (صلاح الدين الايوبي) الذي شتت جموعهم الكثيرة في معركة حطين الشهيرة ...

ابن بطوطة : أعظم مساجد الدنيا !

أما شيخنا ورحالنا المعروف ابن بطوطة فوصف الجامع الاموي قائلا :

« وهو اعظم مساجد الدنيا احتفالا ، واتقنها صناعة ، وابدعها حسنا ، وبهجة وكمالا ، ولا يعلم له نظير ولا يوجد له شبيه .... »

وذكر في (المدبجات) وصف للشام لمؤلفه عبدالمنعم الجيلاني المعاصر لصلاح الدين الايوبي واسمه « مفاوح المماوح وروضة المآثر والمفاخر في خصائص الملك الناصر ما نصه :

« واذا حللت جامعها المشيد ، غبطت المخافت بذكر الله المشيد . تبهر الآذان تلاوته ، ويسحر الآذان طلاوته .. رقمته ايدي الهمم الاموية، وارست قواعد بنيته الارمية ... » .

الصفدي ووصف ساعات الجامع :

قبل أن نذكر نهاية الجامع وحرائقه ندون قصيدة الشاعر الصفدي التي يصف فيها ساعات الجامع الاموى :

في الجامع الاموي الحسن مجتمع
وبابه فيه للاطلاق لذات

دقائق الحسن يحويها له درج
فحبذا منه بالساعات ساعات

وحبذا معبد كم اطربت اذنا
فيه من الذكر نغمات واصوات

جلا العروس على الرائي فطلعتها
تزفها من بدور التم طارات

النار تمحو محاسنه :

نأتي الى اولى الضربات التي لحقت بالجامع فنجدها ذلك الحريق الذي حل به في مطلع القرن الحادي عشر الميلادي بفعل القتال الذي قام بين الفاطميين والعباسيين في دمشق اذ أصابت النار قصر الخضراء ، وامتد الحريق الى المسجد فأكلته ومحت محاسنه وبقي خراباً طيلة اربعة عشر عاما حتى جددت عمارة السقف والقبة أيام السلطان ملكشاه السلجوقي وعلى يد وزيره المصلح نظام الملك .

وتتالت على الجامع الاموي الحرائق ومعظمها كان بفعل احتراق الاماكن المجاورة له وامتدادها اليه حتى بلغ عددها حتى اليوم تسعة حرائق كما ضربته الزلازل واحدثت فيه الخراب أكثر من ست مرات ولم يسلم الجامع هذا ايضا من عبث الطغاة والمخربين فعبث به التتار والمغول مرتين :

مرة عام ١٢٥٩م بعد اجتياح التتار لبغداد دار السلام وبلاد الشام فعطلوه واتخذوه معسكراً لهم ونصبوا فيه المنجنيقات لرمي القلعة وارتكبوا انواع الاثم ..

ومرة ثانية على يد تيمورلنك في القرن الخامس عشر الميلادي ، لكنه كان بعد كل كارثة ينهض المسجد الاموي متحديا عوامل الفناء والتخريب .

وبعد :

هكذا كان الجامع الاموي يتبوا المكانة العليا بين كل بناء في الارض بعد أن أراه الزمن من حلوه ومره ومن نعيمه وبؤسه ما يرى كل حي كانت تتفاوره الايدي دائما أيدي المصائب والبغاة بالخراب والدمار ، وأيدي المصلحين بالعمارة والاصلاح ، حتى الجامع وفي كل شبر منه تاريخ

وصار كفسيفسائه كل قطعة منه من طبيعة ولون ولكل يوم من حياته الطويلة قصة للمدى .

سامراء ـ العراق

أهم المراجع المستفيد منها :

(١) زيادة ، نقولا :
(مدن عربية) ـ دار الطليعة العربية ـ بيروت .

(٢) المنجد ، صلاح الدين :
(المشرق في نظر المغاربة) ص ٢٦ ، ٢٧ .

(٣) طلفاح ، خيرالله :
(كنتم خير أمة اخرجت للناس) ـ ج٢ ـ ط ٥ـ دار الكتاب العربي ١٩٧٥ بيروت .

(٤) علي ، محمد كرد :
دمشق : مدينة السحر والشعر . سلسلة اقرأ (١٦) ـ مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر ..

(٥) عبدالعزيز ، محمد الحسيني :
(الحياة العلمية في الدولة الاسلامية) ـ وكالة المطبوعات ـ ١٩٧٣ ـ الكويت .

(٦) بطوطة ، ابن :
(رحلة ابن بطوطه) .

(٧) جبير ، ابن :
(رحلة ابن جبير) .

(٨) عبو ، عادل نجم (الدكتور) :
مجلة الجامعة / جامعة الموصل ـ العراق . ع (٤) . س ٩ ـ كانون الثاني ١٩٧٩ .

(٩) وكالة الصحافة الفرنسية ـ قسم التحقيقات رقم (٥١٦) .

(١٠) يوسف ، بشرى :
(صلاة التاريخ في الجامع الاموى) ، جريدة الجمهورية البغدادية عدد ١٩٧٩/١/٢٤ بغداد ـ العراق .